



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

تقييم حالة | 23 كانون الثاني/يناير، 2022

كيف غيرت احتجاجات كازاخستان وظيفة منظمة "معاهدة الأمن الجماعي" ودور روسيا فيها؟

باسل الحاج جاسم

كيف غيرت احتجاجات كازاخستان وظيفة منظمة "معاهدة الأمن الجماعي" ودور روسيا فيها؟

سلسلة: تقييم حالة

23 كانون الثاني/يناير، 2022

باسل الحاج جاسم

كاتب في شؤون آسيا الوسطى والقوقاز، وباحث في العلاقات الروسية - التركية، ومؤلف كتاب كازاخستان والأستانة السورية، وكتاب كاراباخ وحرب الأسابيع الستة.

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2022

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية عربية للعلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والتاريخ الإقليمي والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتماماً لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربية أو سياسات دولية تجاه المنطقة العربية، وسواء كانت سياسات حكومية، أو سياسات مؤسسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربية بأدوات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وبمقاربات ومنهجيات تكاملية عابرة للتخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجٍ وخططٍ من خلال عمله البحثي ومجمل إنتاجه.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة، منطقة 70

وادي البنات

ص. ب: 10277

الظعائن، قطر

هاتف: + 974 40354111

www.dohainstitute.org

المحتويات

1	مقدمة
2	مكانة كازاخستان في قطاع الطاقة العالمي
2	روسيا بوصفها ضامناً للأمن في آسيا الوسطى
3	دور جديد لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي «ناتو روسيا»
6	مرحلة جديدة في علاقات روسيا بدول الاتحاد السوفياتي السابق
6	خاتمة
7	المراجع
7	العربية
7	الأجنبية

مقدمة

بدأت الاحتجاجات الشعبية تنتشر في كازاخستان، منذ بداية عام 2022، بعد القفزة الحادة في أسعار الغاز المُسال الذي يستخدمه الكازاخيون بكثافة وقوداً للسيارات، لتشمل البلاد بأكملها تقريباً. وقد أقال الرئيس الكازاخي قاسم جومارت توكاييف الحكومة، وجمّد قرار رفع أسعار الوقود، غير أنّ هذين الأمرين لم يُهدّئا المحتجين. وتجدر الإشارة إلى أنّ رفع أسعار الوقود كان الشرارة التي أشعلت الاحتجاجات، ولكنّ توجد أيضاً أسباب أخرى تراكمية للاحتجاجات؛ بعضها معيشي، وبعضها اقتصادي، وبعضها الآخر سياسي.

لم يكن المشهد في كازاخستان تقليدياً؛ ذلك أنّنا لم نرّ معارضة تحرّك الشارع للاحتجاج، وتضع مطالب أمام السلطات لتنفيذها، وهو ما زاد الأمور تعقيداً، لا سيما بعد تصاعد الاحتجاجات وبدء أعمال التخريب والسيطرة على مباني حكومية ومنشآت استراتيجية ومطارين، من دون ظهور قيادة توجه الاحتجاج أو تتحدث باسمه.

أعلن وزير الداخلية الكازاخي، بيرلان تورغومباييف، أنّ بلاده سجّلت خسائر بقيمة 212 مليون دولار، منذ اندلاع الاحتجاجات في مطلع كانون الثاني/يناير 2022. وأضاف، في بيان له، أنّ الأحداث التي اندلعت في غربي البلاد، في 2 كانون الثاني/يناير، احتجاجاً على زيادة أسعار الغاز المُسال وسوء الأوضاع المعيشية، تواصلت بعد يومين؛ من خلال الاستيلاء على المباني الإدارية في ستة أقاليم، وتخريبها في سبعة أقاليم أخرى عبر استخدام الأسلحة، وأضاف كذلك أنّ كازاخستان لم تصدر أيّ حصيلة محددة لعدد الخسائر البشرية حتى الآن، وأنها اكتفت بإعلان مقتل عشرات الأشخاص من بينهم 16 عنصراً في قوات الأمن¹.

ويبلغ عدد سكان كازاخستان نحو 19 مليون نسمة، وهي دولة متنوعة من الناحية العرقية؛ إذ يمثّل الكازاخيون نحو ثلثي السكان، أمّا الروس فإنّ نسبتهم دون ربع السكان، في حين تمثّل الأقليات الأصغر سائر السكان. ثمّ إنّ كازاخستان هي أكبر دولة في آسيا الوسطى، ويمتد جزء صغير منها في شرق أوروبا، وتساوي مساحتها أوروبا الغربية؛ إذ تبلغ نحو 2.717 مليون كيلومتر مربع، وهي تاسع أكبر دولة في العالم من حيث المساحة، ويحدّها من الشمال الغربي والشمال روسيا، وتمتلك معها أطول حدود في العالم بين دولتين؛ إذ يتجاوز طول الحدود بينهما 7500 كيلومتر. ويحدّ كازاخستان من الشرق الصين، ومن الجنوب قيرغيزستان وأوزبكستان وبحر آرال وتركمانستان، ويحدّها من الجنوب الغربي بحر قزوين المغلق، وهي لا تطلّ على سواحل مفتوحة، وتعدّ أكبر دولة حبيسة في العالم².

وقد شهدت كازاخستان انتقالاً هادئاً للسلطة عام 2019 بعد حكم الرئيس السابق نور سلطان نازارباييف ثلاثين عاماً. فقد اختير نازارباييف عام 1989 سكرتيراً أول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الكازاخي، واستمر في الحكم حتى تاريخ تقديم استقالته في 19 آذار/مارس 2019، ليتولى الرئاسة بعده، قاسم جومارت توكاييف، رئيس مجلس الشيوخ في برلمان البلاد. صحيح أنّ نازارباييف غادر الرئاسة، إلا أنه ظل في السلطة من خلال العديد من المناصب المفصلية التي تتيح له التأثير في شؤون الدولة بعد تقاعده، وتنصيبه زعيماً للأمة مدى الحياة³.

1 نور سلطان ونذير علييف طيفور، "كازاخستان.. 212 مليون دولار خسائر منذ اندلاع الاحتجاجات: حسب بيان صادر عن وزير الداخلية.."، وكالة الأناضول، 2022/1/9، شوهد في 2022/1/19، في: <https://bit.ly/3nEnSuS>

2 "ماذا تعرف عن أكبر دولة حبيسة في العالم تعصف بها الاضطرابات حالياً؟"، بي بي سي عربي، 2022/1/8، شوهد في 2022/1/19، في: <https://bbc.in/3nEq4Cm>

3 باسل الحاج جاسم، كازاخستان والأستانة السورية: طموحات نمر آسيوي جديد وامتحان موسكو (مصر: دار نون للنشر والطباعة والتوزيع، 2020)، ص 91.

مكانة كازاخستان في قطاع الطاقة العالمي

تُعدّ كازاخستان ذات أهمية بالنسبة إلى أسواق الطاقة العالمية؛ نظرًا إلى أنها أكبر مصدر لليورانيوم في العالم ومن أكبر منتجي النفط والفحم، وهو أمرٌ يثير مخاوف من تداعيات الاضطرابات التي تشهدها وعدم استقرارها على أسواق الطاقة وأسعارها. وتنتج أكثر من 40 في المئة من اليورانيوم في العالم. ويُعد هذا المنتج الوقودَ الرئيس للمفاعلات النووية؛ ما يجعلها فاعلاً قوياً في مجال التحول إلى «الطاقة الخضراء». وعلى الصعيد الأوروبي، ظهرت كازاخستان بوصفها فاعلاً مهماً في سوق اليورانيوم بفضل انخفاض تكاليف الإنتاج، حتى إنها أصبحت في الوقت الراهن توفر نحو 20 في المئة من احتياجات أوروبا السنوية من اليورانيوم. ويمكن النظر إلى أحداث كازاخستان على أنها بمنزلة جرس إنذار؛ من جهة أن الاعتماد المفرط على مصدر واحد لإمدادات اليورانيوم يُعدّ أمرًا محفوفاً بالخطر. وتُعدّ كازاخستان، التي تنتمي إلى تحالف «أوبك بلس»، أكبر مصدر للنفط في آسيا الوسطى بطاقة إنتاجية تتجاوز 1.6 مليون برميل من النفط يوميًا، في حين يذهب جلّ إنتاجها من النفط إلى الخارج، خاصة بلدان الاتحاد الأوروبي والصين. وتحتل كازاخستان المرتبة الثانية عشرة لاحتياطي الخام المؤكدة على مستوى العالم؛ بأكثر من 30 مليار برميل من احتياطي الخام. ولا يتوقف الأمر على النفط؛ إذ تُعدّ كازاخستان مصدرًا مهمًا للفحم عالميًا، فمنتوجها منه قد بلغ 108 ملايين طن في عام 2018.

وفي ظل هذه الأرقام الكبيرة، استقطب قطاع الهيدروكربونات نحو 60 في المئة من قيمة الاستثمار الأجنبي المباشر في كازاخستان منذ عام 1991، في حين يمثل هذا القطاع أكثر من نصف عائدات صادرات البلاد. وقد ضخت كبرى شركات النفط في العالم (مثل شركة النفط الأميركية إكسون موبيل، وشيفرون وإيني الإيطالية، وتوتال الفرنسية) استثمارات في كازاخستان تقدّر بمليارات الدولارات على مرّ السنين، وساعد هذا الأمر في تعزيز نمو سوق النفط والغاز في البلاد. في ضوء ذلك، أصبحت كازاخستان عام 2018 تاسع أكبر مصدر للفحم والنفط الخام في العالم، فضلًا عن أنها احتلت المرتبة الثانية عشرة في إنتاج الغاز الطبيعي، وفقًا لبيانات وكالة الطاقة الدولية. وأشارت البيانات إلى أن بلدان الاتحاد الأوروبي تستورد نحو 80 في المئة من صادرات كازاخستان السنوية من النفط⁴.

روسيا بوصفها ضامنًا للأمن في آسيا الوسطى

لم تشكل الاضطرابات تحديًا خطيرًا بالنسبة إلى السلطات في كازاخستان فقط، بل بالنسبة إلى روسيا أيضًا؛ فقد تحمل في طياتها إمكانية زعزعة استقرار ما تعتبره روسيا «حدائقها الخلفية» ومنطقة أمن ومصالح استراتيجية، ولا سيما أنّ تلك الاضطرابات تتزامن مع تصاعد التوتر في أوكرانيا على حدودها الغربية، ثمّ إنّ خطورة أحداث كازاخستان تتمثل في أنّها أوّل مرّة تبلغ فيها مستوى دموياً وعنيفاً، وهي البلاد التي طالما كانت أكثر استقرارًا في آسيا الوسطى؛ إذ إنّها، مثلًا، نجحت في تجنب الحروب الأهلية والثورات الملونة.

وقد أعلن الرئيس الكازخي، توكاييف، أنه طلب المساعدة من قادة الدول الأعضاء في منظمة معاهدة الأمن الجماعي بسبب الوضع الحالي في البلاد، وأكد في تصريح لقناة خبر 21 الوطنية، في 6 كانون الثاني/يناير 2022، أنه طلب المساعدة لإعادة النظام في بلاده في إطار الاتفاقية بين الدول الأعضاء، وأوضح قائلاً: أجريت مباحثات مع قادة الدول الأعضاء في المنظمة، وطلبت منهم مساعدة كازاخستان للتغلب على هذا التهديد الإرهابي.

4 "اضطرابات كازاخستان تدق ناقوس خطر أسواق الطاقة العالمية!"، 2022/1/11، دويتشه فيله، شوهد في 2022/1/19، في: <https://bit.ly/3tDM9Fd>

طلب توكايف من منظمة معاهدة الأمن الجماعي المساعدة الأمنية، مع انتشار الاضطرابات ووصولها إلى مدينة ألما آتا، أكبر مدن كازاخستان، والتزمت روسيا - بسهولة - بإرسالها قوات، لا سيما أنها تقود المنظمة، وهو الأمر الذي لا يمكن إلا أن يجدد مخاوف القوميين الكازاخيين من إعادة هيمنة روسيا. فضلاً عن ذلك، من المرجح أن يؤدي طلب المساعدة من روسيا إلى نفور الكثيرين في بلاد تفتخر بسياستها الخارجية المتعددة الاتجاهات؛ فلا أحد في كازاخستان يرغب في أن تبدؤ بلاده مثل أوسيتيا الجنوبية. وتتفهم روسيا هذه الخصوصية؛ لذلك تركت إعلان تاريخ انتهاء مهمة قوات حفظ السلام، وموعد مغادرتها أراضي كازاخستان، يردان على لسان رئيسها توكايف أولاً.

لا تخلو خطوة دعوة منظمة معاهدة الأمن الجماعي من المخاطر، وربما تشير إلى أن توكايف «اهتز» من التقارير التي تفيد بأن أفراد الأمن ينسحبون من حماية المنشآت الحكومية والاستراتيجية، أو أنه قلق بشأن أطراف أخرى من النخبة، ثم إنه قد يكون لهذا القرار تداعيات في ابتعاد كازاخستان عن سياستها الخارجية المتعددة.

ولكن، يصعب اليوم تحديد ما إذا كان نشر القوات الروسية سيؤثر في جهود كازاخستان المتعلقة بالاستمرار في تحقيق التوازن بين روسيا، والصين، والدول الغربية (الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي)؛ فلا بد من الانتظار وقتاً أطول لمعرفة ذلك. ومن جانبه، حاول الرئيس الكازاخستاني توكايف، في سلسلة تغريدات على «تويتر»، إيصال رسائل مطمئنة قائلاً: ستظل سياسة الترحيب بالاستثمارات الأجنبية استراتيجية أساسية بالنسبة إلى كازاخستان.

ومثلما كان قرار إرسال قوات منظمة معاهدة الأمن الجماعي سريعاً، كان قرار مغادرتها سريعاً أيضاً. وبعد مساهمتها في مواجهة أعمال شغب غير مسبوقه هزت الجمهورية السوفياتية السابقة، بدأت القوات التي تقودها روسيا انسحابها من كازاخستان في 13 كانون الثاني/يناير 2022، وبدأت القوات الروسية أيضاً في تسليم البنى التحتية والمباني التي كانت تؤمن حمايتها إلى السلطات الكازاخية.

سبق أن أعلن الرئيس توكايف، في 12 كانون الثاني/يناير 2022، أن عملية انسحاب قوات حفظ السلام التابعة لدول منظمة معاهدة الأمن الجماعي من بلاده ستنتقل في 13 كانون الثاني/يناير. وقد جاء هذا الإعلان على لسان توكايف نفسه أثناء اجتماع ترأسه في مدينة ألما آتا التي شهدت أعنف الاشتباكات خلال موجة الاضطرابات الأخيرة التي مرت بها البلاد. وشكر توكايف قوات حفظ السلام على عملهم خلال الأيام الأخيرة، ووصف مهمة تلك القوات بأنها «ناجحة جداً»، مشدداً على أن نشر قوات حفظ السلام لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي في كازاخستان، وخاصة في ألما آتا، أدي في حد ذاته دوراً ملموساً في استعادة استقرار الوضع في البلاد.

وقالت وزارة الدفاع الروسية إن قوات حفظ السلام التابعة لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي شرعت في تسليم المواقع التي تشرف على حمايتها إلى قوات الأمن الكازاخية، وأضافت الوزارة، في بيان لها: وفقاً للخطة التي وضعتها قيادة قوات حفظ السلام الجماعية التابعة لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي ووزارة الدفاع في جمهورية كازاخستان، بدأت عملية تسليم المواقع والمنشآت المهمة التي تحرسها عناصر قوات حفظ السلام إلى قوات الأمن الكازاخية.

دور جديد لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي «ناتو روسيا»

تأسست منظمة معاهدة الأمن الجماعي في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1992، وهي اتفاقية دفاع مشترك أخذت شكلها الحالي عام 2002، وحصلت على صفة مراقب في الأمم المتحدة عام 2004، وتضم اليوم طاجيكستان وقيرغيزستان وأرمينيا وبيلاروسيا وكازاخستان، إضافة إلى روسيا، بعد أن انسحبت منها

جورجيا وأذربيجان وأوزبكستان عام 1999. وفي عام 2006، انضمت أوزبكستان مرّة أخرى إلى المنظمة، لتنسحب منها مجدداً في عام 2012.

وتستند المعاهدة إلى مبدأ الدفاع الجماعي، ويُنظر إليها على أنها نسخة روسية لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)؛ ما يعني أنّ تعرض أيّ دولة من الدول الأعضاء إلى هجوم يُعدّ هجوماً على جميع أعضاء الحلف. إضافة إلى ذلك، تُجري تلك الدول مناورات عسكرية مشتركة، وتسهّل بيع الأسلحة وتبادلها فيما بينها، ولكن حتى تلك اللحظة «في كازاخستان» لم يكن لها دور كبير في النزاعات حول أراضي الدول الأعضاء فيها خلال ثلاثين عاماً من إنشائها. وفي الوقت نفسه - وفقاً لعدد من المراقبين - أدّت روسيا دوراً رئيساً في قرار إرسال قوات المنظمة إلى كازاخستان وفي تسوية الوضع على نحو أكبر.

يقع مقر منظمة معاهدة الأمن الجماعي في روسيا العاصمة، وتتناوب الدول الأعضاء رئاستها خلال كلّ سنة، وأبرز أهدافها المعلنة ضمان الأمن الجماعي والدفاع عن سيادة وأراضي الدول الأعضاء، والتعاون العسكري، والحفاظ على الأمن والسلم في المنطقة. وتهدف المنظمة أيضاً إلى مكافحة الإرهاب، ويحظر ميثاقها على الدول الأعضاء الانضمام إلى تحالفات عسكرية أخرى. وتضم هذه المنظمة قوات حفظ سلام قوامها 3600 جندي، وقوات ردّ سريع يتجاوز عدد عناصرها 20 ألف جندي. وفي الوقت الذي يؤكد فيه حلف الناتو الإجراءات الإجبارية ضد أيّ هجوم مسلّح، تعتمد منظمة معاهدة الأمن الجماعي على الطبيعة الطوعية للمشاركة بين الدول الأعضاء. ولدى المنظمة بعض نقاط القوة الكامنة، مثل انعدام حاجز اللغة؛ فكل الجنود يتحدثون اللغة الروسية، وهو أمرٌ يساهم في تنسيق عسكري أكثر كفاءة.

وقد أثار إرسال قوات تابعة لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي، مخاوف من استغلال روسيا الأزمة من أجل تعزيز نفوذها في كازاخستان. وقال وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن في تعليق على نشر قوات حفظ السلام في كازاخستان: هناك درس من التاريخ؛ إذا دخل الروس إلى بيتك، سيصعب إجبارهم على المغادرة. ووصفت المتحدثة باسم وزارة الخارجية الروسية، ماريا زاخاروفا، تصريح بلينكن بشأن مهمة قوات حفظ السلام لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي في كازاخستان بأنه «فُظٌّ»، وتابعت قائلة: إذا كان أنتوني بلينكن شغوفاً جداً بدروس التاريخ، فعليه أن يعرف ما يلي: إذا دخل الأميركيون إلى بيتك، سيصعب عليك البقاء على قيد الحياة وعدم التعرض للسرقة أو الاغتصاب.

وقالت المنظمة إن تلك القوات إنّما هي لحفظ السلام، وإنها ستحمي المنشآت الحكومية والعسكرية، مثل خطوط أنابيب الغاز والقواعد العسكرية الروسية ومحطة الفضاء الروسية في بايكانور، وقالت كذلك: بعد إدخال تلك القوات بوقت قصير، استقر الوضع في كازاخستان إلى حد بعيد.

وقال ستانيسلاف زاس، الأمين العام لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي، إن المنظمة نشرت أكثر من 2030 عسكرياً، من روسيا وبيلاروسيا وأرمينيا وطاجيكستان وقيرغيزستان، لتنفيذ مهمة حفظ السلام في كازاخستان، وأشار إلى أن قوات حفظ السلام، التابعة للمنظمة، استخدمت خلال تنفيذها المهمة نحو 250 قطعة من المعدات العسكرية، وأنه جرى نقل هذه المعدات إلى كازاخستان بواسطة أكثر من 100 طائرة.

وعلى الرغم ممّا تنص عليه المعاهدة، يعتبر تدخّل قوات الحلف في كازاخستان أوّل تدخّلٍ من نوعه في تاريخ المنظمة الممتد إلى 30 عاماً. وعلى الرغم من تعرّض بعض الدول إلى ظروف أكبر من الاضطرابات الحالية في كازاخستان أيضاً، فإنّ المنظمة لم تستجب لما حدث لها، ولم تنشر قواتها؛ فقد رفضت عدة مرات مساندة قوات محلية في أكثر من بلد عضو فيها على مواجهة اضطرابات، أو انتفاضات، أو ثورات داخلية.

لقد طُلب من الحلفاء في منظمة معاهدة الأمن الجماعي المساعدة ثلاث مرّات منذ تأسيسها قبل نحو ثلاثين عامًا، ولم تجر تلبية أيّ طلب، وهي كما يلي:

- أرسل رئيس قيرغيزستان الأسبق، كرمان بيك باكيف، طلبًا لإرسال قوات منظمة معاهدة الأمن الجماعي من أجل مواجهة الاحتجاجات أثناء الانتفاضة الشعبية في بلاده، في نيسان/أبريل 2010، وقد أطاحت الاحتجاجات قبل وصول الإمدادات. وحينئذ، هاجم ألكسندر لوكاشينكو رئيس بيلاروسيا المنظمة، وقال: وقع سفك للدماء في أحد بلداننا، وحدث انقلاب والنتيجة صفر. لماذا؟ وخلص إلى أن نشاطات المنظمة تبدو غير مجدية.

- تلقت منظمة معاهدة الأمن الجماعي طلبًا آخر بعد بضعة أشهر في عام 2010 من السلطات الجديدة في قيرغيزستان برئاسة روزا أتونبايفا لإرسال قوات إلى منطقتي جلال آباد وأوش جنوب البلاد؛ إذ شهدت المنطقة اشتباكات ذات طابع عرقي بين القيرغيزيين والأوزبكيين، ورفض الرئيس الروسي، ديميتري ميدفيديف، آنذاك طلب قيرغيزستان، وبرّر ذلك بالقول إن أسباب الاضطرابات في قيرغيزستان داخلية، وأوضح أن معايير استخدام قوات منظمة معاهدة الأمن الجماعي تتمثل في انتهاك أيّ دولة أو كيان غير حكومي حدود دولة عضو في منظمة معاهدة الأمن الجماعي؛ أي محاولة الاستيلاء على السلطة من الخارج. ففي هذه الحالة فقط، يمكننا التدخل.

- خلال حرب أرمينيا مع أذربيجان، في عام 2020، لم تطلب أرمينيا المساعدة من منظمة معاهدة الأمن الجماعي على نحو رسمي، وقد ردّ الكرملين بطريقة سلبية مستبقًا تقديم أيّ طلب، وأعلن أن معاهدة الأمن الجماعي لا تنطبق على كاراباخ، وأنه لا أحد يهاجم أرمينيا نفسها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بيلاروسيا، وهي العضو في التكتل، لم تطلب التدخل من المنظمة خلال الاضطرابات الشعبية في عام 2020 على خلفية نتائج الانتخابات الرئاسية. وتجدر الإشارة، أيضًا، إلى أنّ رئيس الوزراء الأرميني نيكول باشينيان طلب إجراء مشاورات مع منظمة معاهدة الأمن الجماعي، في عام 2021، عندما شنّ الجيش الأذري هجومًا على الجزء المتنازع عليه من الحدود بين البلدين. وردًا على ذلك، عرضت روسيا على باشينيان العمل لترسيم الحدود.

وخلال احتجاجات كازاخستان التي تحولت إلى فوضى في 5 كانون الثاني/يناير 2022، طلب الرئيس الكازاخي، توكاييف، المساعدة من منظمة معاهدة الأمن الجماعي، ويرجع سبب المساندة إلى أن كازاخستان زعمت أنها تعرّضت لهجوم من عصابات إرهابية تلقت تدريبات في الخارج. ولم تمض ساعات على الطلب الكازاخي حتى أعلنت المنظمة قبول طلب توكاييف، وذلك بعد عقد رؤساء الدول الأعضاء في منظمة معاهدة الأمن الجماعي اجتماعًا افتراضيًا عبر الإنترنت، وبدأت أول عملية حفظ سلام في تاريخ المنظمة والمنطقة⁵.

أثناء أحداث كازاخستان، ظهرت منظمة معاهدة الأمن الجماعي - أول مرّة - على أنها أداة سياسية حقيقية، لأنه كان يُعتقد طوال سنوات عديدة أنها بمنزلة تحالف رمزي، ولكن أصبح من الواضح بعد ذلك أنّ المنظمة يمكن أن تؤدي دورًا ما؛ على الأقل من جهة إضفاء الشرعية على إجراءات معيّنة في فضاء دولها.

5 Alexei Nikolsky, "Organization of the Collective Security Treaty. Targets and goals," *Tass*, 10/1/2022, accessed on 19/1/2022, at: <https://tass.ru/info/13383567>

مرحلة جديدة في علاقات روسيا بدول الاتحاد السوفياتي السابق

توجد تغييرات - لا تخطئها عينٌ - في أسلوب روسيا وأولوياتها من حيث كيفية تفاعلها مع الأحداث في دول ما بعد الاتحاد السوفياتي. ولو أن احتجاجات كازاخستان حدثت قبل عدة أعوام، لما كان هناك أيّ تدخّل عسكري من روسيا. أمّا اليوم، فإنّ روسيا تتفاعل على نحو أكثر حدة مع مخاطر زعزعة الاستقرار وانتشار الفوضى في البلدان المجاورة لها بالنظر إلى أنّ كل سياساتها الداخلية والخارجية مرتبطة بأمنها الاستراتيجي؛ ومن هنا، يمكن تفسير ردة فعلها التي كانت الأشد سرعة تجاه ما جرى.

مما لا شك فيه أنّ مرحلة جديدة قد بدأت الآن في بناء العلاقات بين روسيا والدول السوفياتية السابقة. لقد رأينا هذا قبل عام ونصف العام في أرمينيا خلال حربها مع أذربيجان؛ وذلك حينما ازداد اعتماد أرمينيا كثيراً على روسيا. وقد وجدت أرمينيا نفسها، في ذلك الوقت، في وضع أُجبرت فيه على الاعتماد على روسيا فقط، ولم يكن لديها طرف آخر تتجه إليه.

قد يصبح اعتماد كازاخستان المستقبلي على روسيا ذا طبيعة مختلفة عمّا سبق، والواضح أنّ كازاخستان ستتخذ قرارات متعلقة بالتوجه نحو القوى الخارجية، الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والصين، وتركيا، مع أخذ الكيفية التي يمكن أن تتفاعل من خلالها مع روسيا في الحسبان.

وضعت أزمة كازاخستان فلاديمير بوتين أمام تحدٍّ كبير؛ إذ يمكن أن تتردد أصداء عدم الاستقرار في أكبر الجمهوريات الإسلامية السوفياتية السابقة في آسيا الوسطى، وأكثرها ثراءً من حيث الموارد، مقارنةً بجميع تلك الدول، في حين تشعر طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان أيضاً بتهديد منبعه أفغانستان المجاورة، ولطالما قال بوتين إنّ أمن آسيا الوسطى أمر حيوي بالنسبة إلى روسيا، و«قد نشر بالفعل القوات الروسية لتأمين حدود طاجيكستان الضعيفة مع أفغانستان. وتاريخياً، كان لدى روسيا قلق بشأن أمن الحدود الجنوبية والغربية لروسيا تقريباً على قدم المساواة»⁶.

خاتمة

إنّ تحرك روسيا لإرسال قوات منظمة معاهدة الأمن الجماعي بقيادتها إلى كازاخستان، وسرعتها في هذا التحرك، كانا بهدف منَع تحوّل أزمة كازاخستان إلى ورقة ضغط بيد الولايات المتحدة على روسيا عند حدودها الجنوبية. وقد أثبتت التجارب، خلال السنوات الماضية، أن الاحتجاجات على النطاق المحلي يمكن أن تتحول إلى صراع دولي بأساليب غير تقليدية، كما حصل في دول عدة، تحولت لاحقاً إلى ساحة حرب بالوكالة بين الغرب وروسيا، إضافة إلى انحرافها في أكثر من مكان إلى أكثر من اتجاه، مع دخول أطراف انفصالية أو متطرفة على «خط الأحداث».

إنّ ما حدث في كازاخستان ليس الحدث الأول بالنسبة إلى دول «ما بعد الاتحاد السوفياتي». ومن المؤكد أنه لن يكون الأخير. وتُظهر حالة كازاخستان أنّ أيّ تهديد لاستقرار دول منظمة معاهدة الأمن الجماعي بعد اليوم، سيكون من السهل وصفه بأنه خارجي، حتى لو كان ناتجاً من أسباب داخلية؛ سواء أكان منشؤها اجتماعياً - اقتصادياً، أم صراعاً بين النخب، أم محاولة انقلاب.

6 Embassy of the Russian Federation in the Republic of Tajikistan, *AGREEMENT between the Russian Federation and the Republic of Tajikistan on Cooperation on Border Issues*, accessed on 19/1/2022, at: <https://bit.ly/34Qi2jh>



المراجع

العربية

جاسم، باسل الحاج. **كازاخستان والأستانة السورية: طموحات نمر آسيوي جديد وامتحان موسكو**. مصر: دار نون للنشر والطباعة والتوزيع، 2020.

الأجنبية

Embassy of the Russian Federation in the Republic of Tajikistan. *AGREEMENT between the Russian Federation and the Republic of Tajikistan on Cooperation on Border Issues*. at: <https://bit.ly/34Qi2jh>